

المفهوم الآخر للاستشراق

نموذج يوغسلافيا

محمد م. الأرناووط

ضمت يوغسلافيا في حدودها المعروفة في أواخر 1918 بعض المناطق التي كانت تدخل بالمفهوم الأوروبي الغربي ضمن «الشرق الأدنى» حتى مطلع القرن العشرين. فقد كانت هذه المناطق تحت الحكم العثماني حوالي أربعة قرون، حيث انتشر فيها الإسلام بالمفهوم الديني والثقافي والحضاري حتى أن بلغراد نفسها كانت تسمى حتى مطلع القرن التاسع عشر «بوابة الشرق»، لأن القادمين من أوروبا الوسطى والغربية كانوا يشعرون مع دخولهم إلى بلغراد أنهم قد عبروا الحاجز الذي كان يفصل بين الغرب والشرق⁽¹⁾.

ومع إلحاق هذه المناطق بيوغسلافيا في 1918، الذي فرض على سكان هذه المناطق ذات الغالبية المسلمة، تتصعد الوجود النفسي والتعليمي والثقافي لل المسلمين بسبب الظروف التي واكبت تأسيس الدولة الجديدة. فقد واجه المسلمون، الذين كانوا يشكلون حيتانحوالي 12٪ من سكان الدولة، حملات صحفية وسياسية تتراوح بين الدعوة إلى تنصيرهم وإلى الدعوة إلى تهجيرهم نحو تركيا باعتبارهم من الأتراك⁽²⁾. ولذلك فقد انصب اهتمام من بقي منهم على التشبيث بالذات والنضال السياسي (في البوسنة) والقتال المسلح (في

(1) للمزيد حول ذلك أنظر كتابنا: تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت (دار العروبة) 1987، ص 19 - 20.

(2) للمزيد حول ذلك أنظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، عمان (دار البشير) 1993، ص ص 193 - 195.

كوسوفو) في وجه الحملات والضغوطات عليهم خلال العشرينات والثلاثينات. وفي هذا الإطار فقد عمدت الحكومة اليوغسلافية في الثلاثينات إلى إجراء مباحثات مع تركيا لتهجير حوالي ربع مليون مسلم إليها، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية حال دون تفزيذ تلك المشروعات⁽¹⁾.

في هذه الظروف أدمج المسلمون في النظام التعليمي الجديد، الذي فصلهم بالتدريج عن تراثهم الذي كان لهم خلال الحكم العثماني الطويل، والذي كان يدون باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية) أو باللغات المحلية بالحروف العربية⁽²⁾. وقد اقتصرت الصلة مع ذلك التراث على عدد من العلماء/الباحثين المخضرمين الذين تابعوا البحث فيه والتعريف بأهم أعماله وإنجازاته كصفوت بك باش أغويتش S. Basagic وسليمان كمورا S. Kemura ومحمد خانجيتش M. Handzic وغيرهم⁽³⁾.

(1) للمزيد حول سياسة التهجير، وهذه الانتفاقية على وجه التحديد، أنظر كتابنا: كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني - الصربي في القرن العشرين، القاهرة (مركز الحضارة للدراسات السياسية) 1998 ، ص ص 43 - 45 و 117 - 121.

(2) للمزيد حول هذا التراث الشرقي تجدر الإشارة إلى عمل رائد في العربية أصدره في القاهرة 1931 الباحث البوسني محمد الخانجي (خانجيتش): محمد بن محمد البوسني، الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء Bosnia، القاهرة 1349هـ. وقد صدر في طبعة جديدة في 1992 عن دار هجر بتحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو. وحول هذا التراث لدينا في العربية عرض لأحدث كتاب صدر في سراييفو مؤخراً: أسعد دوراكوفيتش، التراث البوسني باللغات الشرقية، مجلة «الندوة» مجلد 6 عدد 2، عمان 1996 ، ص ص 29 - 32.

وللتوسيع حول هذا التراث لدينا مرجع رئيس في الألمانية صدر مؤخراً: Smail Balic, Das Unbekannte Bosnien-Europas Brücke zur Islamischen Welt, Köln/Wien 1992.

(3) للمزيد حول صفتون باش أغويتش أنظر مقالتنا: مكتبة باش أغويتش / مجموعة تضم أندر المخطوطات الشرقية، جريدة «الحياة» 26/11/2000 ، ص 21. وأما عن محمد خانجيتش/الخانجي فهناك معلومات عنه في مقدمة الطبعة الجديدة لكتابه الذي صدر في القاهرة، ص 7.

ومن ناحية أخرى فقد بُرِزَ في قلب الدولة الجديدة (بلغراد) اهتمام بالاستشراق تمثّلًـ في تأسيس أول قسم للاستشراق في جامعة بلغراد خلال 1926. وفي الحقيقة لقد عرفت صربيا، نواة يوغسلافيا، بعد استقلالها في 1878 بروز أول جيل من المهتممين/المترجمين بالجوار المسلم (الذى كانت صربيا ترغب في التوسيع فيه) مثل ديمتري تشوهاجيتش D. Cohazic الذي ترجم كتاب «سباحت نامه» لأوليا جلبي (بلغراد 1905)، س. نوفاكوفيتش S. Novakovic الذي ترجم «مذكرات إبراهيم منصور أفندي حول بعض الأحداث في البوسنة وصربيا خلال 1813 – 1814» (بلغراد 1893) وجورج بوبوفيتش Dj. Popovic الذي كان أول من ألف في مجال المفردات الشرقية في اللغات اليوغسلافية «المفردات التركية والشرقية في لغتنا» (بلغراد 1894) وغليشا الزوفيتش G. Elezovic الذي نشر مع سبورو حاجي رسنيتش S. Hadzi Ristic أول «قاموس تركي – صربي» (بلغراد 1910) ثم نشر بعد ذلك الكثير من الأعمال الرائدة⁽¹⁾.

لكن الاستشراق الصربي/اليوغسلافي يرتبط عادةً باسم فهيم بايراكтарوفيتش F. Bajroktarovic (1889 – 1970)، الذي أسس أول فرع للاستشراق في جامعة بلغراد والذي بقي حضوره مؤثراً حوالي خمسين سنة⁽²⁾. وفي الحقيقة أن ربط الاستشراق اليوغسلافي باسم بايراكтарوفيتش وحضوره المؤثر حوالي نصف قرن إنما يعود لعدة أسباب. فقد كان بايراكтарوفيتش يمثل تياراً من البشناق الذين يعتبرون أنفسهم من الصرب، ولذا كان بمعايير بلغراد النموذج

(1) غليشا الزوفيتش (1879 – 1960) ولد في فوشترن/كوسوفو وعايش نهاية الحكم العثماني. درس في إسطنبول وبلغراد (اللغات) واشتغل في الإدارة الصربية/اليوغسلافية حتى أصبح مفتشاً للتعليم في الوزارة. تقاعد عام 1924 وتفرغ للبحث والنشر. ساعدته معرفته للغات (التركية – العثمانية والألبانية وغيرها) على البحث في تاريخ المنطقة خلال الحكم العثماني. ومن أهم مؤلفاته «الأثار التركية» و«من الأرشيف التركي – دفاتر المهمة» وغيرها.

(2) للمزيد حول بايراكтарوفيتش أنظر مقالتنا عنه التي صدرت بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاته: بايراكтарوفيتش والاستشراق اليوغسلافي، جريدة «الحياة» 7/2/2001، ص 20.

الذى تتمنى أن يتبعه البشناق المسلمين. ومن ناحية أخرى فقد كان بايراكтарوفيتش يمثل مدرسة في الاستشراق كانت تناسب أيضاً بلغراد. وهكذا فقد برع منذ الثلاثينات من يروج لبايراكтарوفيتش باعتباره «مستشرقاً الوحد الذي يعمل حسب الأصول العلمية»⁽¹⁾.

وقد ارتبط هذا الترويج لبايراكтарوفيتش بترويج أوسع للاستشراق الأوروبي الغربي باعتباره المثل الأعلى للأوروبيين (في أوروبا الشرقية) وحتى للشرقيين/ المسلمين في دراسة تاريخهم وأدبهم. فحسب هذا الموقف كانت أوروبا الغربية هي التي أحست بالحاجة منذ قرون لدراسة لغات الشرق وأدبه ومؤسساته الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وذلك لأهداف متداخلة (دينية وسياسية واقتصادية)، ولكن «الحسن الحظ جاء الوقت الذي أصبح فيه الاستشراق في أوروبا يمارس لأهداف علمية بحثة». وبالاستناد إلى هذا «كان الاستشراق العلمي حتى عهد قريب يمارس في الغرب فقط، ولكن في العقود الأخيرة أخذ الشرق يتبع الغرب في ذلك. وهكذا فقد نظمت الآن في القاهرة وطهران واستنبول دراسات استشرافية قوية تأخذ تماماً بالمناهج الأوروبية للعمل العلمي»⁽²⁾.

هكذا يتبيّن من هذا الموقف المبكر الذي يروج للاستشراق الأوروبي الغربي مدى تمثيل النزعة الأوروبية المركزية، التي أصبحت هي المرجعية في مناهجها وفي نتائجها حتى للشرقيين أنفسهم. وبهذا المفهوم كانت تتكرّس الثنائية التي تقوم على الذات/المركز الأوروبي المتتفوق بعلمه والآخر/الشرق المختلف الذي لا بد أن يأخذ بما يقدمه له الأول عن ذاته أيضاً. وهكذا بدأ الآن، حتى في وسط مسلمي يوغسلافيا، التمييز بين العلماء/ المستشرقين «الذين يدرسون مواضيعهم حسب المناهج العلمية الغربية» (وعلى رأسهم بايراكтарوفيتش الذي أصبح المثل الأعلى لهم) وبين العلماء/ الشرقيين الذين

M. Tajib Okic, Orijentalistika u Jugoslaviji, Pregled, Sv. 127-128, Sarajevo 1934, p. 411. (1)

Ibid., p. 409. (2)

تخرجوا من المدارس التقليدية في البوسنة وغيرها وأصبح منهاجهم يسمى الآن «شرقياً لا يناسب العمل في هذا المجال» كإبراهيم أدهم I. Edhem توفيق أوكيتش M. Okic وغيرهم⁽¹⁾.

وفي الواقع أن هذا التمييز بين المدرستين، والذي ظهر علانيةً منذ الثلاثينيات، استمر مع بايراكتاروفيتش حتى الخمسينات حين دخل في سجال علني مع بعض «العلماء الشرقيين» في سراييفو حول مواضيع علمية بحثية. وكان بايراكتاروفيتش قد نشر في عام 1955 مقالة بعنوان «أهل دوبروفنيك وزادار في ألف ليلة وليلة» ورد عليه «العالم الشرقي» بسيم كركوت B. Korkut⁽²⁾ من سراييفو يفتقد ما جاء في مقالته. فما كان من بايراكتاروفيتش (الذي كرس في يوغسلافيا وأوروبا باعتباره أحسن مستشرق) إلا أن رد عليه بتعالي «المستشرقين» على «الشرقين» وحتى بهم على «تربيته الأزهرية/المدرسية المعاوجة»⁽³⁾. والمشكلة هنا أن كركوت كان على حق في انتقاده لبايراكتاروفيتش، الذي أخرج لأول مرة في الأوساط العلمية.

وفي الحقيقة أن هذا السجال بين بايراكتاروفيتش وكركوت، وبالتحديد بين بلغراد وسراييفو، في الخمسينات إنما كان يمهد ويهُدِّر إلى تطور جديد في الاستشراق اليوغسلافي، وبالتحديد إلى بروز مفهوم آخر للاستشراق في يوغسلافيا. وكان مما مهدَّ لذلك جملة من التطورات الجديدة. فالنظام الملكي (الصربي) في يوغسلافيا (1918 – 1941) كان يتنازع مع القوى السياسية الكرواتية

Ibid., p. 410.

(1)

(2) بسيم كركوت B. Korkut (1904 – 1975) ولد في ترافنيك وذهب إلى القاهرة لمتابعة دراساته حيث تخرج من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر. وبعد عودته عمل فترة في التدريس، والتحق بمعهد الاستشراق فور تأسيسه (1950) وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق/ جامعة سراييفو. ترجم «كليلة ودمنة» وأجزاء من «ألف ليلة وليلة» و«نوادر عربية» وغيرها، وتوج حياته بترجمة القرآن الكريم (1977) التي اعتبرت من أفضل الترجمات التي صدرت حتى ذلك الحين.

Fehim Bajraktarevic, Odgovor na natpis «Da lije se Zadareni spominju u Hiljadu i jednoj noci», POF X-XI, Sarajevo 1961, p. 275. (3)

حول البوسنة، إذ كان كل طرف يدعى انتساب البشانقة المسلمين إليه ويطالب بضم البوسنة إليه باعتبارها من كيانه القومي. ولذلك فقد كان من مصلحة بلغراد أن يكون هناك قسم واحد للاستشراق في البلاد (بلغراد) على رأسه مستشرق مثل بايراكتاروفيتش يكون في خدمة النظام القائم. وهكذا حين اهتم بايراكتاروفيتش بـ«تقاليد المولد النبوي عند المسلمين في البوسنة» نشر ما كتبه تحت عنوان «قصائد صربية عن النبي محمد»⁽¹⁾، على اعتبار أن هذا التراث البشانقي المسلم جزء من الثقافة الصربية⁽²⁾. وفي المقابل كانت زغرب تحاول أن تستقطب في البوسنة شخصية محورية تروج للانتماء الكرواتي للبشانقة المسلمين⁽³⁾. ومع نفت يوغسلافيا في الحرب العالمية الثانية (1941 – 1945)، التي شهدت ضم البوسنة إلى «دولة كرواتيا المستقلة»، ظهرت في الأفق روح - صيغة فدرالية في 1943 تعترف بالبوسنة ككيان خاص، مما مهد لتأسيس يوغسلافيا الفيدرالية التي أصبحت فيها البوسنة جمهورية من جمهورياتها الست⁽⁴⁾.

وبالمقارنة مع يوغسلافيا الملكية/الممركبة، التي تستلهم أوروبا الغربية في السياسة والاقتصاد وحتى الاستشراق، كانت يوغسلافيا الجديدة/الفدرالية

F. Bajraktarevic, Srprka Pesma o Muhamedovu rodjenju, Glasnik Skopskog naucnog drustva, Skopje 1927, pp. 189-202.

(2) قوله هذا العنوان باستهجان في أوساط المثقفين في البوسنة، ولذلك اضطر بايراكتاروفيتش إلى إدخال تعديلات عليه ونشره ثانية بعنوان آخر «حول المولد لدينا والمولد بشكل عام»:

F. Bajraktarevic, O nasim Mevlulima i Mevludu uopste, Prilozi za knjzevnost, jezik, istoriju i folklor, knj. XVII, SV.1, Beograd 1937.

(3) كان صفوتو باش أغويتش قد حصل في 1910 على الدكتوراه من جامعة فيينا على رسالته بالألمانية «البشانقة والهراطقة في الأدب الإسلامي»، التي طبعها في سراييفو في 1911 بالعنوان ذاته بعد ترجمتها. ولكن بعد التجاذب الصربي - الكرواتي أعد باش أغويتش الرسالة للطبع مرة أخرى في زغرب (1931) بعنوان آخر «الكروات البشانقة والهراطقة المشهورون في الإمبراطورية التركية»، مما كان يعني كرونة البشانقة والهراطقة:

Zamenti Hrvati Bosnjaci i Hercegovaci u turskoj Caravini, Zagreb 1931.

(4) للمزيد حول هذه التطورات انظر: نوبل مالكوم، البوسنة، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة (الألف كتاب الثاني) 1997، ص 226 – 239.

تعي مكوناتها المتعددة ومكانتها كجسر بين الشرق والغرب. ومع هذه الروح لم تعد كل المؤسسات ممركزة في بلغراد، وإنما أخذت تنشأ مؤسسات موازية (لتلك الموجودة في المركز) في الجمهوريات الأخرى. وفي هذا الإطار فقد تأسس «معهد الاستشراق» (الذي كان الأول والوحيد من نوعه) في سراييفو في ربيع 1950، كما تأسس في خريف ذلك العام قسم آخر للاستشراق في جامعة سراييفو. ومع تأسيس «معهد الاستشراق» ستؤسس في الواقع النواة التي ستطور لاحقاً المفهوم الآخر للاستشراق في يوغسلافيا.

وكانت النواة التي قام عليها معهد الاستشراق تختلف عن نواة قسم الاستشراق في بلغراد بتتكوينها وثقافتها. فقد كانت نواة المعهد تضم «الشرقين»⁽¹⁾ الذين تخرجوا من المؤسسات التقليدية كبسيم كركوت وصالح عليتش⁽²⁾ ومحمد موبيتش⁽³⁾، والمحضرمين الذين جمعوا بين المؤسسات التقليدية والكليات الحديثة كحميد حاجي بيغيتش⁽⁴⁾ وعمر موسيتش.

(1) صالح عليتش S. Alic (1914 - 1997) ولد في قرية قرب فيسوکو، بدأ تعليمه على النمط التقليدي ثم ذهب إلى القاهرة ليتابع دراسته حيث حصل على العالمية من الأزهر. ثم انضم إلى معهد الاستشراق (1971). عمل محرراً لمجلة المعهد واهتم بالبليوغرافيا حيث نشر عدة إسهامات في مجلة المعهد.

(2) محمد موبيتش M. Mujic (1920 - 1984) ولد في موستار وانتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا. اشتغل في فيلولوجيا اللغة العربية وأدابها، حيث نشر عدداً من دراسات في مجلة المعهد وغيرها من المجالات اليوغسلافية.

(3) حميد حاجي بيغيتش H. Hadzibegic (1898 - 1988) ولد في سراييفو ودرس فيها أولاً على النمط التقليدي ثم سافر إلى إسطنبول ليتابع دراسته هناك، حيث تخرج من كلية الحقوق في جامعة إسطنبول. انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه (1950). اشتغل في تحقيق ونشر المصادر العثمانية عن البوسنة، وترجم بعض الأعمال الأدبية عن التركية.

(4) عمر موسيتش O. Music (1903 - 1972) ولد في سراييفو ودرس فيها أولاً على النمط التقليدي، ثم درس في مدارسها الإسلامية منذ 1926. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه (1951)، وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق / جامعة سراييفو. اهتم بمؤلفات البشانقة في اللغة العربية، ونشر عن ذلك عدة دراسات في مجلة المعهد «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية».

وحازم شعبانوفيتش⁽¹⁾ وآدم خانجيتش⁽²⁾ وتوفيق مفتيش⁽³⁾، والمستشرقين الجدد الذين تخرجوا من قسم الاستشراق في بلغراد براتيسلاف جورجيف⁽⁴⁾ ونديم فيليبيوفيتش⁽⁵⁾.

(1) حازم شعبانوفيتش H. Sabanovic (1916 – 1917) ولد في قرية قرب فيسوكو. انتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا، ثم تابع دراسة التاريخ في جامعة بلغراد حيث حاز على الدكتوراه هناك. انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه (1950). واشتهر بمؤلفاته المرجعية عن البوسنة والتراجم الشرقي فيها. من أهم مؤلفاته «ولاية البوسنة» وأدب مسلمي البوسنة والهرسك في اللغات الشرقية» وغيرها.

(2) آدم خانجيتش A. Handzic (1916 – 1998) ولد في بلدة تيشاني وانتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا، ثم حصل على دكتوراه في التاريخ من كلية الآداب في جامعة سراييفو. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه (1952). اشتغل في التاريخ الحضاري للبوسنة وخاصة فيما يتعلق بالعمران والسكان وانتشار الإسلام خلال الحكم العثماني. من أهم مؤلفاته «توزلا وضواحيها في القرن السادس عشر» و«سكان البوسنة في العهد العثماني» وغيرها.

(3) توفيق مفتيش T. Muftic. ولد في سراييفو عام 1918 ثم تابع دراسة اللغات (الألمانية والإيطالية) في جامعة زغرب، والفيلولوجيا الشرقية في جامعة سراييفو حيث حصل على الدكتوراه. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه (1951) وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق / جامعة سراييفو. من أهم أعماله «قاموس عربي - صربيكرواتي» و«الكتابة العربية» و«البلاغة العربية الكلاسيكية» وغيرها.

(4) براتيسلاف جورجيف B. Djurdjevic (1908 – 1993) ولد في مدينة سرمسكي كارلوفتسى في فويводينا، انتقل إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق وتابع دراسته العليا هناك. انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه (1950) وكان مديرًا له خلال 1950 – 1964، وأصبح لاحقاً (1968 – 1971) رئيساً لأكاديمية العلوم والفنون في البوسنة. اشتغل في تاريخ شعوب يوغسلافيا خلال الحكم العثماني. من أهم مؤلفاته «السلطة التركية في الجبل الأسود» و«دور الكنيسة في التاريخ القديم للشعب الصربي» و«دفاتر الجبل الأسود في عهد إسكندر بك ترسنوفيتش» وغيرها.

(5) نديم فيليبيوفيتش N. Filipovic (1915 – 1984) ولد في بلدة غلاغووفيتش وذهب إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق هناك. بدأ العمل أولاً في قسم الاستشراق في سراييفو فور تأسيسه (1950) ثم انتقل للعمل في معهد الاستشراق مديرًا له خلال سنوات =

ونتيجة لهذا التنوع، والتواصل ما بين الأجيال، والروح الجديدة التي ميّزت يوغسلافيا الفدرالية فقد جاء مرسوم تأسيس المعهد الذي يحدد مهامه ليعبر عن بداية تبلور مفهوم آخر للاستشراق. ففي هذا المرسوم تحددت مهام المعهد الجديد كما يلي:

- جمع ونشر المخطوطات الشرقية والوثائق المتعلقة بتاريخ البوسنة.
- دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية وأدابها وتأثيرها في اللغة البوسنية وثقافتها.
- دراسة ثقافة البوسنة في اللغات الشرقية.
- دراسة الفن الشرقي في البوسنة.
- خلق كوادر علمية في مجال الاستشراق.
- نشر نتائج الأبحاث التي يقوم بها المعهد في المجالات والإصدارات الخاصة⁽¹⁾.

ومن الواضح هنا أن الاستشراق، فيما يتعلق بالبوسنة على الأقل، لم يعد لدراسة الآخر/المختلف بل لدراسة الذات/التراث المحلي للتواصل معه من جديد. ولا شك أن هذا الإقبال على دراسة التراث البوسني في اللغات الشرقية، بمفهوم جديد، كان له أثره فيما بعد في بروز «الروح البوسنية» التي عبرت عن نفسها في ابتعاث ثقافي/قومي/سياسي في يوغسلافيا الجديدة.

كان المفهوم التقليدي للاستشراق يركز على أن الإسلام دين وافد/غريب انتشر بالقوة في البلقان/أوروبا، ولذلك إن كانت له ثقافة هنا فهي ثقافة

= 1964 - 1969. اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني، وخاصة فيما يتعلق بانتشار الإسلام والحركة الفكرية الاجتماعي. من أهم مؤلفاته «الأمير موسى والشيخ بدر الدين»، كما له ترجمات عن التركية.

(1) Behija Zlatar, Orientalni institut u Sarajevo 1950-2000, Sarajevo 2000, p.g الإشارة إلى أن هذا الكتاب صدر أيضاً بالإنجليزية بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس The Institut for Oriental Studies in المعهد، وهو يصلح وبالتالي مرجعاً للمهتمين: Sarajevo 1950-2000, Sarajevo (Orijentalni institut) 2000.

وافدة/غريبة بلغات وافية (العربية والتركية والفارسية) لم تعد مفهومة للشعب في البوسنة⁽¹⁾. وعلى العكس من ذلك انطلق الاستشراق الآخر في سراييفو من مفهوم مختلف لا يسلم بفرض الإسلام وإنما يركز أبحاثه على الظروف المساعدة لانتشار الإسلام والنتائج الإيجابية لانتشار الإسلام في البوسنة وغيرها. وبالاستناد إلى ذلك لم تعد النظرة إلى الثقافة الإسلامية في البوسنة باعتبارها ثقافة «مفروضة» وإنما ثقافة محلية للبشانقة كغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام.

ولا شك أنه كان للدراسات/الإصدارات الكثيرة حول هذه المواضيع التي نشرت في سراييفو خلال الخمسينيات والستينيات أثرها في نمو «الروح البوسنية» التي فرضت نفسها على القيادة السياسية في البلاد، حيث اعترفت أخيراً بالبشانقة كشعب على قدم المساواة مع الشعوب الأخرى في يوغسلافيا، بمناسبة الإحصاء العام للسكان عام 1971. ومع هذا الاعتراف، الذي وفر حرية أوسع للعمل في هذا المجال في البوسنة، أخذ المفهوم الآخر للاستشراق يتضح أكثر ويعبر عن نفسه من خلال كبار المستشرقين.

وهكذا، في هذا الإطار، كان مدير معهد الاستشراق عبدو سوتسيكا⁽²⁾

(1) «من هنا ليس من المفهوم لماذا ينزعج المسلمون لدينا حينما يتقد أحدهم قبلهم الإسلام في الماضي... المسلمين لدينا لم يقبلوا العثمانيين كإخوة لهم فقط بل كانوا قاعدة لهم خلال عدة قرون. وهكذا فقد كان المسلمون يعتبرون المحتلين الأتراك إخوة لهم فيما كانوا يعتبرون إخوتهم المسيحيين الذين يدافعون عن الاستقلال أعداء لهم ويضيقون عليهم. وهكذا فقد كانوا ضد حريةهم الذاتية لأنهم مع قبلهم للإسلام تغربوا عن قوميتهم بقبولهم للغة وثقافة أجنبية»: Miroljub Jevtic, Od Islamske deklaracije do verskog rata u BIH, Beograd (Filip Visnjic) 1993, p. 21

المستشرق أنظر المقابلة التي أجريت معه في بلغراد ونشرت مقتطفات منها في العربية: الأرناؤوط، الإسلام في يوغسلافيا، ص ص 241 - 245.

(2) عبدو سوتسيكا A. Suceska ولد في قرية قرب روغاتيتسا عام 1927، وانتقل إلى بلغراد حيث درس القانون في جامعة بلغراد سراييفو (1950) وانتقل إلى معهد الاستشراق مديرًا له خلال سنوات 1969 - 1974. اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني. من أهم =

أول من تعرض لهذا في إطار افتتاحه لندوة «الثقافة العربية الإسلامية» التي عقدها المعهد خلال 18 - 19 أيار 1973⁽¹⁾. وفي الكلمة الافتتاحية له التي جاءت بعنوان «خصائص الاستشراق لدينا» اعترف سوتتشسكا أن الاستشراق حتى مطلع القرن العشرين كان يتواجد في أوروبا الغربية، وركز على أن الاستشراق في يوغسلافيا «أخذ يتطور بشكل جدي بعد الحرب العالمية الثانية مع أن قسم الاستشراق في جامعة بلغراد تأسس منذ 1925» ليصل إلى أنه بسبب «الظروف التاريخية فإن الاستشراق لدينا يحمل خصوصية تميّزه عن غيره من البلاد الأوروبيّة الأخرى التي لها تقاليد في هذا المجال»⁽²⁾. وهكذا فإن الاستشراق في يوغسلافيا «كبلد بلقاني على اتصال وارتباط قوي مع شعوب الشرق وثقافاته خلال عدة قرون، وتحت الحكم العثماني عدة قرون أخرى، فقد التفت ليأخذ بالبحث العلمي في تلك الأمور المتعلقة بيوجسلافيا مباشرة». ومن هنا فإن «المستشرقين في يوغسلافيا بالمقارنة مع غيرهم في أوروبا الشرقية، يدرسون الظواهر التي تحمل طابعاً شرقياً، والتي ترتبط ببلادنا بشكل مباشر»⁽³⁾. ويلاحظ هنا أن الموقف الذي يحاول بلورة مفهوم آخر للاستشراق إنما جاء في 1973، أي بعد سنتين فقط من الانعطاف الكبير (1971) الذي جعل من السبعينات «السنوات الذهبية» للمسلمين في يوغسلافيا سواء في البوسنة أو في كوسوفو. وفي هذا الإطار تم تأسيس فرع ثالث للاستشراق في جامعة بريشتينا (1973)، حيث تشكلت نواة أخرى من المستشرقين الألبان

= مؤلفاته «الأعيان - دراسة في القوى المحلية في بلادنا خلال الحكم التركي»، «تاريخ الدول والقوانين في يوغسلافيا» وغيرها. نشرت له مؤخراً دراسة في العربية ضمن كتاب عن وقف النقود: دراسات عن وقف النقود - مفهوم آخر للربا في المجتمع العثماني، تقديم وتحرير/ محمد م. الأرناؤوط، تونس (مؤسسة التميمي) 2001.

(1) صدرت أبحاث هذه الندوة في عدد كامل من مجلة المعهد «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية»، عدد 24، سراييفو 1974:

Simpozij o arapsko-islamskoj kulturi, POF XXIV, Sarajevo 1976.

Avdo Suceska, Specifnost nase orijentalistike, Ibid., p. 9. (2)

Ibid., pp. 9-10. (3)

(حسن كلشي وفتحي مهدي وغيرهم) في الوقت الذي لم تكن فيه ألبانيا (بسبب طبيعة النظام السياسي) معنية بافتتاح قسم مماثل في تيرانا. ولذلك فإن هذا المفهوم الآخر للاستشراق سيتبلور أكثر فأكثر مع مرور السنوات.

وهكذا فقد كانت سنة 1975، التي شهدت الاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيس معهد الاستشراق في سراييفو، مناسبة للتعبير أكثر عن هذا التمايز والمفهوم الآخر للاستشراق. فقد ركز مدير المعهد آنذاك سليمان غروزدانيش⁽¹⁾ في كلمته الافتتاحية بهذه المناسبة على الظروف الجديدة التي انطلقت منها الاستشراق في سراييفو (بروز البوسنة من جديد بعد التنازع الصربي - الكرواتي عليها طيلة يوغسلافيا الملكية «حيث أصبحت كياناً مستقلاً تتيح لشعوبها تنمية ثقافتهم بحرية ومساواة») وانتهى إلى أنه «لم يعد المطلوب من الاستشراق (البوسني على الأقل) البحث في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني» وإنما وسع من مفهومه لكي يشمل «حماية ونشر التراث الثقافي الذي أبدعه شعبنا خلال ذلك العهد»⁽²⁾. وفي نهاية كلمته ميّز غروزدانيش بين دافعين للاستشراق في البوسنة/يوغسلافيا: الدافع القومي والدافع العام. وهكذا سيعتبر غروزدانيش أن جذور الاستشراق البوسني (القومي) إنما كانت عند الرواد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (أي قبل تأسيس يوغسلافيا وقبل تأسيس فرع الاستشراق في بلغراد) الذين «عملوا

(1) سليمان غروزدانيش S. Grozdanic (1933 – 1996) ولد في بريدور وانتقل إلى سراييفو للدراسة في قسم الاستشراق، حيث تابع دراسته العليا/ الدكتوراه هناك. بدأ العمل في قسم الاستشراق في سراييفو (1958) وأصبح مديرًا لمعهد الاستشراق خلال 1974 – 1982 وخلال 1985 – 1989. اشتغل أولاً في دراسة الأدب العربي القديم والحديث، حيث نشر دراسات وترجمات كثيرة، ثم اهتم بالتراث الشرقي للبوسنة. من أهم مؤلفاته «في آفاق الأدب العربي» و«التراث الشري للبوسنة والهرسك في اللغات الشرقية» وغيرها. للمزيد عنه أنظر مقالتنا: سليمان فروزدانيش - حياة في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، جريدة «المستقبل».

Sulejman Grozdanic, Orijentalni institut u Sarajevu/Povodom 25. Godicnjice, POF (2) XXV. Sarajevo 1976, p. 4.

بحماس لكشف ونشر المخطوطات المتعلقة بالتاريخ السياسي والثقافي للبوسنة⁽¹⁾. ومن الواضح هنا أن غروزدانيش، الذي كان أول من ركز على الدافع «القومي» للاستشراق الجديد في يوغسلافيا إنما يجد مرجعيته في سراييفو، حيث يعيد الاعتبار إلى باش أغبيتش وخانجيتش وغيرهما وليس في بلغراد وبايراكتاروفيتش.

لقد جاء التركيز على ما هو «قومي» في وقت بدت فيه الروح القومية تنتشر في يوغسلافيا، وتتحول إلى نقاش/خلاف علني بين الوحدات الفدرالية (صربيا والبوسنة وكرواتيا وسلوفينيا وكوسوفو ومقدونيا بشكل خاص). وفي هذا الإطار بُرِزَ إلى السطح، ولأول مرة، نقاش/خلاف علني بين ما يمكن تسميته مدرسة بلغراد ومدرسة سراييفو في الاستشراق تمرّكز حول «المركزية الأوروبية». وقد بدأ هذا النقاش/الخلاف العلني بعدما نشر أسعد دوراكوفيتش⁽²⁾ في 1984 عرضاً لكتاب فضل الرحمن «روح الإسلام» الذي كان قد صدر حينئذ في يوغسلافيا، حيث أشاد فيه بجهود المؤلف (فضل الرحمن) في تصحيح الأخطاء حول شخصية الرسول محمد و حول الإسلام بشكل عام التي أرساها الاستشراق الممثل للتزعنة الأوروبية المركزية، بما في ذلك نقهـة لأعمال المستشرق المجري غولدتسيهـر في هذا المجال⁽³⁾. وقد ردَّ على ذلك

Ibid.

(1)

(2) أسعد دوراكوفيتش E. Durakovic ولد في قرية قرب بوغينو عام 1948 ، وانتقل إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق حيث تابع دراساته العليا/الدكتوراه هناك. بدأ العمل في قسم الاستشراق في بريشتينا (1976) ثم انتقل إلى معهد الاستشراق (1991) وبعدها إلى قسم الاستشراق في سراييفو (1996). اشتغل في الأدب العربي الحديث، حيث نشر عدة دراسات وترجمات، ثم اهتم بالتراث الشرقي للبوسنة. من أهم مؤلفاته «نظرية الإبداع المهجري» و«البلاغة العربية في البوسنة - رسالة أحمد بن حسن البوسنية في الاستعارة» وغيرها. للمزيد عنه انظر مقالتنا: ترجمة «ألف ليلة وليلة» تعبير عن الهوية البوسنية الجديدة، جريدة «المستقبل» 19/1/2001، ص. 17.

E. Durakovic, Poimanje Islama u istoriji (Fazlur Rahman «Duh Islama», Beograd 1983), (3) Kultura Istoka 102 L 1984, pp. 102-103.

بعنف داركوتاناسكوفيتش⁽¹⁾ الذي هاجم دوراكوفيتش وغيره «الذين يستخدمون بلاغتهم في نقد النزعة الأوروبية لمؤسسوا «نزعة شرقية مركبة» تسيطر عليها العناصر الحديثة للأصولية الإسلامية والعروبة المركزية، وتشكل في الإسهامات الإيجابية لعدد كبير من المستشرقين الأوروبيين⁽²⁾. ويلاحظ هنا أن هذا الهجوم، مع هذا التحرير السافر على مدرسة سراييفو الاستشرافية بتهمة «الأصولية الإسلامية»، إنما جاء في وقت تصاعدت فيه حملة الصحافة الصربية على «الأصولية الإسلامية» في البوسنة بعد محاكمة علي عزت بغوفوفيتش وأصحابه في سراييفو في 1983 بتهمة الترويج لـ«الأصولية الإسلامية»⁽³⁾. ومن الطبيعي أن يأتي رد دوراكوفيتش الأعنف⁽⁴⁾ ليعمق بذلك التمايز بين المدرستين (مدرسة بلغراد ومدرسة سراييفو) بالاستناد إلى الموقف من النزعة المركزية الأوروبية.

ومع تعمق الخلافات بين الجمهوريات اليوغسلافية، التي كانت تندبر بأسوأ مصير، جاءت الذكرى الأربعون لتأسيس معهد الاستشراف في سراييفو التي تزامنت مع عقد ندوة «انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في البوسنة»⁽⁵⁾.

(1) دراكو تاناسكوفيتش D. Tanaskovic ولد في زغرب عام 1948 وتخرج من قسم الاستشراف في بلغراد، حيث تابع دراساته العليا/ الدكتوراه. انضم إلى قسم الاستشراف في بلغراد (1971)، وعين مؤخراً (1998) سفيراً ليوغسلافيا في تركيا. اشتغل أولاً في الفيلولوجيا العربية ثم أخذ يهتم بالإسلاميات. من مؤلفاته «اللغة العربية في تونس المعاصرة» (رسالة الدكتوراه) و«كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ (دراسة وترجمة) و«الشعر العربي» (دراسة ومحارات) وغيرها.

(2) Darko Tanaskovic, Nalicje Prevazlizenja evropocentrizma u Jugoslovenskoj orijentalistici, Sveske Instituta za proucavanje nacionalnih odnosa, br. 16-17, Sarajevo 1986, p. 317.

(3) لل Mizid حول هذه المحاكمة وخلفياتها السياسية أنظر: الأرناووط، الإسلام في يوغسلافيا، ص ص 237 – 239.

(4) Esad Durakovic, Prilog rasvetljavanju epigonstva u jugoslovenkoj orijentalistici, Sveske Instituta za proucavanje nacionalnih odnosa, br. 18-19, Sarajevo 1987, pp. 499-404.

(5) نشرت أعمال هذه الندوة في عدد خاص من مجلة المعهد: Naucniskup «Sirenje islama:

= i islamska kultura u bosanskom ejaletu», POF 41, Sarajevo 1991.

ولا شك أن تنظيم مثل هذه الندوة، وطبيعة الأوراق التي قدمت فيها، إنما كانت تعكس «الروح البوسنية» في الاستشراق اليوغسلافي، وبالتحديد المفهوم الآخر للاستشراق الذي قدم صورة مختلفة تماماً عن ظروف انتشار الإسلام ونتائج ذلك في البوسنة. وقد كان من الملفت للنظر أن افتتاح هذه الندوة تم بحضور علي عزت بوغوفيتش، الذي كان قد انتخب رئيساً لجمهورية البوسنة آنذاك بعد خروجه من السجن. وفي كلمته الافتتاحية رکز مدير المعهد آنذاك أحمد عليتيتش⁽¹⁾ على ما تغير حتى ذلك الحين في مفهوم الاستشراق حين قال «لدينا اعتقاد راسخ بأن الاستشراق أحد أهم العلوم القومية، وهو متساوٍ في أهميته لكل الشعوب التي كانت تحت الحكم العثماني»⁽²⁾. وبعبارة أخرى فقد قومن أو أمم عليتيتش الاستشراق باعتباره national discipline (في البوسنية *nacionalna disciplina*)، أي أنه لم يعد أداة منهجية مأخوذة من المركز (أوروبا الغربية) لدراسة الآخر (الشرق)، بل هو علم كباقي العلوم الأصيلة (القومية) التي تعبّر عن الذات وتدرس التراث الذاتي. وفي هذا الإطار فقد أشار المدير السابق للمعهد عبد سوتسيسكا إلى الروح التي سادت في هذه الندوة (الأولى من نوعها في البوسنة/يوغسلافي) حينما قال إنه «في العلم رفضت بشكل عام الأطروحة التي تقول بأن الإسلام قد فرض على سكان البوسنة، مع أن بعض المؤرخين لا يستبعدون إمكانية = وتجدر الإشارة هنا إلى أن كل نسخ هذا العدد كانت قد وصلت المعهد حين تعرض للقصف في آذار 1992 فاحتقرت مع غيرها من موجودات المعهد. وقد صدرت طبعة ثانية من هذا العدد في 1995 بفضل مساعدة مالية من هيئة «الإغاثة الإسلامية - بريطانيا»، كما هو وارد في الغلاف الداخلي لهذا العدد.

(1) أحمد عليتيتش A. Alicic ولد في قرية نفسينية عام 1934 وانتقل إلى سراييفو للدراسة في قسم الاستشراق. بدأ العمل في تدريس العربية في مدرسة الغازي خسرو بك ثم انتقل إلى معهد الاستشراق (1961) وأصبح مديرًا له خلال 1984 - 1985 وخلال 1989 - 1992. اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني وفي المصادر العثمانية. من أهم مؤلفاته «تنظيم أيةلة البوسنة خلال 1789 - 1878» و«الحركة في سبيل الحكم الذاتي للبوسنة خلال 1831 - 1832» وغيرها.

Ahmed S. Alicic, Cetrdeset godina postojanja i rada Orientalnog instituta, Ibid., pp. 11-12. (2)

وجود ضغوط نفسية واقتصادية في سياسة نشر الإسلام»⁽¹⁾. وللأسف فقد أعقب الندوة المصير الذي كان يخشى من حدوثه ألا وهو انهيار يوغسلافيا. وإذا كانت البداية تمثلت في حرب سريعة في سلوفينيا وكرواتيا فإن البوسنة بالذات شهدت مأساة فاقت كل التوقعات أسلهم فيها للأسف بعض المستشرقين من مدرسة بلغراد، سواء في التحضير/التحريض لها أو في تبريرها فيما بعد⁽²⁾. وقد تمثلت هذه المأساة فيما تمثلت في القصف الصربي المتعمد لمعهد الاستشراق في سراييفو في 1992، حيث تم تدميره بما فيه من وثائق ومخطوطات لا تقدر بثمن. وفي الواقع ليس من الصعب تفسير خطوة كهذه، إذ إن معهد الاستشراق كان يعتبر من المحركين لـ «الروح البوسنية» التي كانت وراء الانبعاث الثقافي/القومي للبشانقة خلال العقود السابقة. وفي المقابل فقد اعتبر المستشرقون في سراييفو أن الحرب ضد البوسنة، التي كانت تهدف لتدمير الكيان الثقافي/القومي للبشانقة، إنما كانت تشملهم ولذلك فقد عملوا في ظروف صعبة للغاية لإثبات ذاتهم القومية بواسطة عملهم⁽³⁾.

بعد انتهاء الحرب في البوسنة عام 1995، واستقرار استقلال هذه الجمهورية عن يوغسلافيا، كان من الطبيعي أن يتحرر الاستشراق البوسني من الإطار الثنائي الذي كان يحكمه في الإطار اليوغسلافي (ثنائي بلغراد/سراييفو) وأن يلتفت أكثر إلى التراث الشرقي للبوسنة (نشر الأعمال الكاملة لصفوت بك باش أغويتش، الأعمال الكاملة لمحمد خانجيتش إلخ). وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أحدث دراسة صدرت في سراييفو للمستشرق المعروف أسعد دوراكوفيتش، التي تلخص كل هذه التطورات التي شهدتها الاستشراق اليوغسلافي بعد الحرب العالمية الثانية.

ينطلق دوراكوفيتش في هذه الدراسة من أن الاستشراق في أزمة منذ

Avdo Suceska, Uvodna rijec, Ibid., p. 24.

(1)

(2) للمزيد حول ذلك أنظر مقالتنا: حوار/ صراع الحضارات: دور الاستشراق في النموذج اليوغسلافي، مجلة «الأداب» عدد 3 - 4، بيروت 2000.

(3) للمزيد حول ذلك أنظر مقالتنا: كيف أصبحت ترجمة «ألف ليلة وليلة» تعبيراً عن الهوية البوسنية الجديدة، جريدة «المستقبل» 25/1/2001.

الستينات، منذ مقالة أنور عبد الملك «الاستشراق في أزمة» (1963) ومقالة فرانشيسكو غابرييلي «دفاعاً عن الاستشراق» (1965) وكتاب إدوار سعيد «الاستشراق» (1978)، مما مهد بدوره للنقاش/ الخلاف داخل الاستشراق اليوغسلافي حول القضايا ذاتها التي كانت تطرح عند الآخرين كال موقف من النزعة المركزية الأوروبية. وهو لا يخفى رأيه في أن الاستشراق الأوروبي إنما كان يهدف بالفعل إلى «تشريق» Orientalization الشرق للسيطرة عليه، مما أخذ يدفع الكثير من العاملين إلى التخرج من استخدام مصطلح «الاستشراق» والاستعاضة عنه ببدائل أخرى كـ«اللغات الشرقية وأدابها» و«الدراسات الشرق أوسطية» إلخ. وفيما يتعلق بيوغسلافيا، وبالذات بالبوسنة، يرى أن هناك سبباً أهم لتجاوز هذه النزعة المركزية الأوروبية في الاستشراق، ألا وهو خصوصية البوسنة والاستشراق البوسني. ففي هذا الكيان التاريخي/ الجغرافي يلتقي الشرق والاستشراق على نحو فريد: «في هذا المجال/ الكيان أبدعت خلال مئات السنين المعرفة والأدب في اللغات الشرقية، المهمة من الناحية الكمية والناحية النوعية، التي تمثل ربما أهم جانب في التاريخ الثقافي لهذا الكيان الذي لم يعد في الشرق والتي هي في الوقت نفسه موضوع الاستشراق»، مما «لا نجد له مثيلاً في أوروبا». ومن هنا يطرح دوراكوفيتش السؤال الذي كان يتم التلميح إليه في السابق: هل يمكن الشانقة الأوروبيين أن يسموا أنفسهم مستشرقين حين يدرسون تراثهم الثقافي في اللغات الشرقية؟ وبالاستناد إلى هذا السؤال هل يمكن القول إن صفت باش أغويتش هو «مستشرق» كما هو فرانشيسكو غابرييلي في إيطاليا وألكسندر بوبيوفيتش في السوربون؟ ومن هنا يرى دوراكوفيتش أنه في الوقت الذي أصبح فيه الكثير من المستشرقين في العالم يفضلون عدم استخدام هذا المصطلح (الاستشراق) فإنه من المبرر أكثر للعاملين في هذا المجال في البوسنة أن يبادروا إلى تسمية جديدة لما يقومون به من عمل/بحث علمي (الاستشراق)⁽¹⁾.

